قصة العدد

السمفونية الناقصة

بقلم صباح محيي الدين

لو قيل لي – ذات يوم – ان الموسيقى ستتيح لي فرصة من اجمل ما مر علي ، لضحكت بملء فمي . فانا احب الموسيقى ، الا ان معرفتي لها وتعلقي بها ماكانا ليؤهلاني يوماً لتلك النعمة الرائعة العابرة التي بدأت بسبب موتزارت واثمرت بفضل « سدني بشيت » (١) ، وانتهت بسبب شوبرت ، بعد أن عشت فترة من امتع ما عرفت ، تعلمت فيها الكثير مما كنت اجهله من آثار باريس ومعالمها ، وعن موسيقى القرن الثامن عشر ، وعن روح بنات فيينا وغير روحهن من عذوبة وبضاضة ، في شخص ماريا كونش .

ماريا ... او ماشكا كما كانت تريد أن يسميها الاصحاب ، جاءت باريس لتزداد علماً بالعزف على الكمان ، فبدأت ... ولكني اظن ان من الافضل ان ابدأ القصة من ابدئها .

* * *

كنت في ذلك العهد البعيد ادرس في جامعة السوربون ، او هكذا كان يظن والدي الذي ارسلني لأتم دراستي في باريس . وفاته – رحمه الله – ان ارسال شاب في العشرين الى باريس ، كمن يطلق ديكاً كثير الفيتامينات في مزرعة تعج بالدجاجات الجميلة ، ثم يطلب اليه أن يتعلم الكيمياء ،وهو العلم الشريف الذي كان مفترضاً اني ادرسه .

ولباريس على امثالنا من فتيان الشرق الذين حرموا حتى النظر الى انثى – بله التحدث الى النساء ومخالطتهن – اثر واحد لا يتغير ، مهما كان احدنا ، ومن اين اتينا . فالسوري والعراقي والمصري ... والهندي والصيني ، كلنا في الهواء سواء . ما نصل باريس حتى نحاول ان نجد لنا غرفة اقرب ما تكون من الحي اللاتيني ونسجل اسماءنا في الجامعة – ارضاء لضميرنا ، ثم اقناعاً للوالد بارسال الاتاوة الشهرية – ، ثم نبدأ باكتشاف مقاهي البول ميش (٢) ومونبارناس(٣)، ولا تمضي الا ايام او اسابيع قلائل حتى يكون احدنا قد عرف اكثر من واحدة ، تساهم في تخفيف الكبت المتراكم عليه منذ اجيال لا تعد. والنساء كماء البحر ، يزداد الشارب منه عطشاً ، مع فارق واحد، وهو أن ماءهن عذب قراح ... ثم تنقضي ثلاثة ، اربعة او خمسة شهور ، فيكون الفتى الشرقي قد اشبع نهمه الأول ، واصبح في امكانه أن يتمالك نفسه ، فلا يذوب رغبة امام اية انثى تبتسم له او تنظر اليه ببعض الاهتمام ... وهنا يدخل في طور الاختيار والتذوق .

وتعرفت على ماشكا وانا في هذا الطور من مقامي في باريس ، ولو عرفتها أول وصولي لما نمت صداقتنا واثمرت ، اذ لكنت وجدتها بطيئة على المستعجل مثلي ، يقطف من شجرة اللذائذ ادنى قطوفها ولو كانت بعيدة عن الكمال ، ولا يكلف نفسه جهد التسلق الى الثمار البعيدة الناضجة . وكان اول لقاء لنا في اثناء حفلة اقامها احد نوادي الطلبة في المدينة الجامعية ، جرني اليها صديق لي جراً ، وفوت علي ميعاداً مع فتاة ، فذهبت الى الحفلة مكرهاًمنقبضاً . وكأنما اراد صديقي أن يخفف عني بعض انقباضي فأخذ يقدمني الى كل من يعرف ، ثم قادني الى حلقة تجمعت حول بيانو أقيم في احد الزوايا وقال لي : ألست تحب الموسيقى ؟ تعال اقدمك الى هذا الشاب الألماني .. انه من خير من سمعت من اللاعبين على البيانو . وفيما كنت اتبادل عبارات التحية العادية مع الشاب الألماني علقت عيني بفتاة شقراء الشعر ، خضراء العينين ، سوداء الحاجبين ، تمز من قدح في يدها مزاً رقيقاً ، وتستمع بأذن شاردة للحديث الدائر حولها . وما انتهيت من تحية الألماني ، حتى انفلت مني ليسلم على اشخاص يدخنون، فوجدت نفسي وحيداً في حلقة لا اعرف فيها احداً . وعدت انظر الى شقرائي ، فرأيت انها مازالت مكانها ، فتوجهت نحوها وقلت لها بالفرنسية

– اليس غريباً كيف يمكن للانسان ان يحس بعزلته حتى في وسط الضجة والجعجعة ؟

فالتفتت نحوي وقالت بفرنسية متعثرة بعض الشيء :

– الحق معك .. وبالأخص حين يكون بيننا وبين الآخرين حجاب اللغة .

فقلت :

– آه ! انت لست فرنسية ؟

– لا . انا من فيينا .

– اوه ! أظن ان حجاب اللغة سيظل صفيقاً بينك وبيني . فان المانيتي اضعف من فرنسيتك بكثير .

وساد صمت شعرت اثناءه ان الخيط الرفيع الذي حاولت ان انسج منه شيئاً من الصداقة بين شقرائي وبيني ، سوف ينقطع الى غير رجعة اذا لم اتدارك الأمر بحيلة فقلت :

– ولكن .. الا تعرفين اية لغة اخرى ! ؟

– اعرف الانكليزية خيراً من الفرنسية .

فتنفست الصعداء وقلت :

– الحمد لله ... اذاً لنتكلم الانكليزية .

فتبسمت وبدا عليها الارتياح ، وظهر في عينيها بريق حل محل الملل الذي كان يملأهما . وتحدثنا ، واللغة المشتركة فعل السحر في اجتذاب الناس بعضهم الى بعض ، فهي تخلق جواً من الثقة المتبادلة ومن وحدة الحال يسهل مولد الصداقات ونموها . وهذا ما جرى بين شقرائي وبيني ، فلم تمض إلا دقائق حتى أصبحنا نتحدث حديث الأصدقاء القدماء . وسألتها :

– ما اسمك ؟ فاجابت :

– ماريا كونش فقلت لها :

(١) من اشهر عازفي موسيقى الجاز .

(٢) اختصار لبولفارسان ميشيل وهو الشارع الرئيسي في الحي اللاتيني .

(٣) حي الفنانين ، وهو يجاور الحي اللاتيني .

– كونش ؟ اليس هذا اسماً تركياً ؟

– هكذا قيل لي . فان لنا اصولا تركية ترجع الى عهد سليمان القانوني

– وهل تعرفين معنى « كونش » ؟

– لا . وهل له معنى ؟ كنت اظنه اسماً كسائر الأسماء لا معنى لـه

– معناه « الشمس » . واذا شئت رأيي ، فانه خير اسم لاجمل مسمى ...

فضحكت باستحياء يمازجه السرور الذي تحسه كل امرأة للاطراء المديح وقالت ، تغير الموضوع :

– وانت ما اسمك ؟ فاجبتها :

– لم ننته منك بعد . ماذا تصنعين في باريس ؟

– جئت اتخرج في العزف على الكمان . فلقد نلت الجائزة الاولى من « كونسر فتوار » فيينا ، فارسلني اهلي لادرس على « جاك تيبو » . هل سمعت به ؟

– طبيعي سمعت به . انه اعظم عازف على الكمان في فرنسا . لقد حضرت « كونسيراً » له منذ شهر .

وشعرت بأن كلماتي قد اصابت من نفسها موقعاً حسناً ، وقالت :

– هل تحب الموسيقى ؟

وقبل ان اجيب ، هبط على القاعة صمت تام ، وارتفعت نغمات البيانو . ونظرنا معاً الى مصدر الصوت ، فاذا بالشاب الألماني قد جلس يعزف « موسيقى الليل الصغيرة » ، وقد تحلق الحاضرون حوله . واخذت – بصورة لا شعورية أدندن معه بصوت خافت ، واستسلمت بكاملي للموسيقى . واذا بهمس ناعم في اذني :

– جميل ... انه يعزف عزفاً بديعاً والحق ... ثم :

– اراك تحب هذه القطعة . فاجبت هامساً بدوري :

– موتزارت موسيقاري المفضل . ان فيه انفاساً ليست في « باخ » الهندسي ولا في بيتهوفن « الإعصار » ، ولا في شوبان « النسوي » .

وعلى الحان موتزارت دار بيننا حديث هامس خفي ، عن موتزارت وعن الموسيقى عامة . ولا اذكر ما قلت فيه على وجه التدقيق ، اذ أن فاشا كانت قد مالت علي لتتحدث الي عن قرب ، فلا تعكر صفو الموسيقى ، وملت عليها كي اهمس لها بما اقول ، فلامس شعرها وجهي ، وملأ عطرها انفي ، واحسست بدفء لذيذ يشع منها فلم املك نفسي أن سألتها :

– ما هو العطر الذي تستعملينه ؟

فلم تجب ، بل وضعت اصبعها على فمها وقالت :

– هس ! استمع الى الموسيقى .

وسكت . لا لأستمع للموسيقى ، بل لأفكر كيف استطيع ان أجعل هذا العطر يستقر في غرفتي .

* * *

وانتهت حفلتنا بعد أن فرغ العازف من عزفه ، وسألت ماشا وانا اودعها :

– متى اراك ؟ فقالت : – ولماذا تريد أن تراني ؟

– هذا سؤال محرج حقاً.. لنقل اني اريد ان اراك لنتحدث عن الموسيقى.

فبدا على وجهها الارتياح وقالت :

– اذا كنت تريد التحدث في الموسيقى ، فلنلتق غداً ...

* * *

والتقينا ، على البول ميش ، في مقهى « دوبون » الذي كنت قد جعلته مقراً لي في تلك الفترة من حياتي . ووصلت « ماشا » في ثوب اسود بسيط يزيد بشرتها ضياء ويبرز خضرة عينيها وشقرتها الذهبية . وجلست الى جانبي وكان المكان مزدحماً بالناس ، فازدحمنا ، واحسست من جديد بعطرها يلفني بموجة من اللذة تمل لها بدني ، وبجسمها يلتصق بجسمي فاحس بنار لافحة تخترق ثيابي وتسري تحت جلدي في موجات عريضة ، كموجات الماء القيت فيه حصاة . وسألتها من جديد ؛ :

– ما هو العطر الذي تستعمليه ؟ فاجابت : ماهذا جئنا . ألم تقل انك تريد لقائي للتحدث في الموسيقى .

فقامت لنفسي :

– « فنطزية » حبيبة خلية ... ودلع سوف ينقضي . وقلت :

– طبيعي ! لنتحدث في الموسيقى ... ولكن الا تريدين أن تشربي شيئاً ؟

– مع الشكر . اشرب حليباً بارداً ... بلا سكر .

وطلبت لها الحليب وانا اعوذ في نفسي بالشيطان من هذه البداية . حليب (وبلا سكر) ... وحديث عن الموسيقى ! الا أن هذه البداية الصعبة بعض الشيء لم تزدني الا رغبة فيما كان يجول في خاطري ، وماشيت « ماشا » فيما ارادت وبدأنا نتحدث ... فحكت لي كيف بدأت تتعلم الكمان وهي في الخامسة من عمرها ، وكيف دخلت الكونسرفتوار في فيينا ، وعبرت لي عن حماسها لتمكنها من التدرب مع مارسيل تيبو . وفجأة سألتني :

– وانت ... هل تفضل آلة موسيقية على اخرى ؟

– افضل الكمان .

– الكمان ! بديع ! ! واستضحكت قائلة :

– اظن اننا سنتفاهم على كل شيء ما دام الكمان آلتنا المفضلة .

فقلت (وانا اعني ما اعني) :

– آمل أن نتفاهم على كل شيء كما تقولين .

ولم يبد عليها انها ادركت تلميحي ، بل سألتني :

– ولماذا تحب الكمان ؟ هل تعزف عليه ؟..

– لا يمكنني القول اني اعزف على الكمان ر لا .. ولكني – انا كذلك . بدأت اتعلم العزف صغيراً ، الا أن ظروفاً طارئة قسرتني على تركه .. الا ان تلك الايام التي قضيتها بصحبة الكمان خلفت في نفسي اثراً لا ينمحي ، وحباً للكمان يفوق حبي لأية آلة اخرى . فانا مثلا حين اسمع قطعة « هومورسكه » Humoresque احس بقلبي يذوب بين اضلاعي ذوباناً .

وبدا عليها الاهتمام بما قلت والعطف علي بسبب الظروف القاهرة التي حطمت حياتي الموسيقية . واشحت بوجهي عنها كي لا تقرأ الحقيقة في عيني ، وهي ان تلك الظروف القاهرة تمثلت في شخص اخوي اللذين حلفا اغلظ الايمان بأنهما سيكسران الكمان على رأسي ، وقالا اني اذا شئت ان اتدرب على تلك الآلة الشيطانية فلي القبو او السطح ، اما البيت حيث البشر يعيشون ويحاولون النوم ، فلا والف لا .

وظل حديثنا موسيقياً بحتاً ... لم تكلمني ماشا الا عن الموسيقى بانفعال وعاطفة وحماس اصعدت النار الى خديها فوردتهما واشعت في عينيها نور الالهام ، حتى كأنهما موجتان متألقتان من البشم . وجربت ان اسوقها الى حديث آخر ... الى باريس وما فيها من امكانيات للانطلاق والانفتاح ... الى الاماسي الممتعة على ارصفة السين حين يلف الليل بهدوئه النهر والأشجار الملتفة على ضفتيه والسفن النائمة في احضانه . وقلت لها :

– هل تعرفين باريس ؟

– لا

– سأكون دليلك اذا شئت . وسألتها متأدباً :

– ما الذي ترغبين في مشاهدته ؟

– طالما حلمت وانا في فيينا بأن ارى الاوبرا

– هذا سهل ... غداً ؟

– طيب . غداً . تعال الى البيت الأمريكي في المدينة الجامعية ، وقف تحت اول شباك في الطبقة الثانية الى يمين الباب ، وصفر اول مقطع من السنفونية الناقصة ، انزل اليك .

* * *

وما فارقتها حتى وقفت افكر تفكيراً عميقاً ... هذه السنفونية الناقصة كيف اصفر اول مقطع منها ؟ فانا لا اعرف كيف تبدأ ، ولو عرفت لما احسنت التصفير ، اذ ان بيني وبينه خلافاً يرجع الى ايام الصغر حين كنت احاول ان اعكر مزاج زوار سينما « الشرق » في حلب بكل الوسائل بما فيها التصفير ، فانجح في كل وسيلة الا به ، فلا استطيع الوصول الى المرتبة المرموقة التي يحتلها غيري من الأولاد الذين يحسنون التصفير ، بين رفاقهم واصحابهم .

ثم انتقل تفكيري الى نزهتنا غداً ، وبدا لي ان ماشا ستريدها نزهة موسيقية وان خير سبيل للتمكن من صداقتها هو ان اسايرها في ذلك . وفجأة لمعت في دماغي فكرة ، وبدت لعيني صورة كتاب رأيته قبل بضعة ايام على « بسطة » احد باعة الكتب المستعملة على ضفاف السين . ووجدتني بعد دقائق عنده اسأله :

– بكم هذا الكتاب ؟

– « معالم باريس الموسيقية » ؟

– نعم

– خمسون فرنكاً .

فاعطيته الخمسين فرنكاً وعدت الى غرفتي اطالع واذاكر حتى كدت احفظ الكتاب غيباً .

* * *

وفي صباح اليوم التالي توجهت الى المدينة الجامعية ودخلت البيت الأمريكي توجهت الى زاوية الاستقبال وطلبت ماشا . ولم تمض الا ثوان حتى نزلت مسرعة واذ رأتني قالت :

– لم اسمع صفيرك فاجبت متعللا :

– لقد نسيت اي شباك شباكك .

– تعال ... سأريك كي لا تخطيء المرة القادمة .

وخرجنا من الباب وسرنا حتى صرنا قبالة الشباك فقالت :

– انظر ... اول شباك في الطبقة الثانية ، الى يمين الباب .

– الطبقة الثانية ؟ كل ظني ان شباكك في الطبقة الأولى ... المرة الآتية أعرف ... والآن ، هل نذهب ؟

وسرنا نحو موقف الاوتوبوس (٢١) فركبناه وسار بنا حتى ميدان الاوبرا واخذنا ندور حولها ، وماشا تصيح وتتأوه من الاعجاب ، انا اسقيها فيضاً لا ينقطع من المعلومات عن من بنى الاوبرا ، ومن ول موسيقي دشنها ، وما هي الاوبرات العظيمة التي مثلت فيها ... وماشا وتشرب ما اقول كأنه اكسير الحياة ، سابحة في احلامها ، تكاد لا تلتفت الي .. اما انا فكنت امتع انظاري بتماثيل الفتيات العارية الرائعة اللواتي يحملن المشاعل حول دار الاوبرا ، واجاهد نفسي كي لا اقول لماشا ان بناية الاوبرا من اقبح ما تمخض عنه عهد نابليون الثالث من قباحات هندسية وان الدوس هكسلي قال ان الأنسان السوي لا يمكنه ان يسمع « اوبرا » من اولها الى آخرها دون ان ينام او يصاب بالصداع او يقنع من الغنيمة بالفرار .

وبعد اكثر من نصف ساعة من الشوق والتواجد ، تجرأت فقطعت على ماشا رؤياها وقلت :

– هل نجلس في محل ؟ في « كافيه ده لابي » هنا .. مثلا ؟

فأجابتني بما يشبه الغضب :

– نجلس ! وما زلنا لم نر شيئاً بعد ! لماذا لا نذهب الى «الاوبرا كوميك» ؟

فقلت وانا اكتم ما بنفسي :

– الى « الاوبرا كوميك » اذن .

ولم تقنع بالاوبرا كوميك ، بل جرتني الى « الشاتليه » وغير الشاتليه من المسارح الغنائية في باريس ، وكل مكان في باريس نفخ فيه بزمر او دق فيه بطبل . ولم نعد الى الحي اللاتيني الا وقد تكسرت ارجلنا من المشي . وجلسنا عند «دوبون» من جديد نستريح ، وقالت ماشا :

– انا شاكرة لك لطفك في مرافقتي ... ولم اكن اتوقع منك ان تكون على هذا الاطلاع وعلى هذا الحب للموسيقى ... لا ... لا .لا تغضب .. فانتم الشرقيين معروفون بأن المرأة لا تهمكم الا من ناحية واحدة ... واذا خرجتم معها فلغاية واحدة ...

وحاولت ان اقول لها ان تلك فكرة ابعد ما تكون عن الصواب واننا ... واني ... ولكنها قطعت علي كلامي قائلة :

– الا انك تختلف عما قيل لي ... والحق انها مفاجأة سارة : ودليل على ان الافكار « الجاهزة » خاطئة في اكثر الاحيان ... ثم سألتني بدون استطراد :

– ماذا تفعل يوم الأحد ؟

– لا شيء على التعيين .

– ماقولك ... اذا دعوتك صباح الأحد ؟

– دعوتني ؟ ... الى ماذا ؟

– هذا سر ومفاجأة ... اذا شئت ان تقبل فافعل دون ان تسألني .

– طبيعي اقبل ... متى ؟

– تعال الى المدينة الجامعية في الساعة التاسعة .

ورأيتني من جديد ، في ضباب الصباح الباريسي ، احاول ان اصفر السنفونية الناقصة فلا استطيع ... واطلبها بالتليفون فتنزل ، واحاول ان افسر واشرح واعلل . فقلت لها :

– ولماذا لا تأتين انت الى هنا ، فنتناول الفطور معاً ؟ ان الجلسة عند «دوبون» صباح الأحد من اجمل وأروق ما يكون ... جربي ولو مرة واحدة .

– قبلت ... الساعة التاسعة من صباح الأحد ... هنا .

* * *

ووصلت ماشا في الساعة التاسعة تماماً الى « دوبون » ولم ترد الجلوس بل قالت ، جواباً على دعوتي الى الفطور :

– لقد فطرت في البيت الامريكي .. وليس عندنا وقت نضيعه .. فالكونسر يبدأ في الساعة التاسعة والنصف .

فقلت – والدهشة تكاد تعقل لساني – اذ اني كنت انتظر كل شيء ، صباح احد مثل هذا ، الا كونسرا :

– كونسر ؟

– نعم .. لقد حجزت محلين لك ولي ، ولم اقل لك شيئاً لأني اردتها مفاجأة.

فقلت ، بصوت مبطن بالسخرية :

– واية مفاجأة ! ! واين يقام هذا الكونسر ؟ ماكنت اري ان في باريس موسيقاراً يخرج من فراشه صباح الأحد ليشنف اسماع الناس ...

– وهذه ايضاً مفاجأة .. الكونسر في كنيسة المادلين .. والموسيقار هو « مارسيل دوبرى » الأعمى ... اعظم عازف على الارغن في فرنسا ... تعال بنا فالوقت ضيق .

وقمت من مقعدي على مضض وانا اكاد اتمزق غيظاً ، وكدت ان اقول لماشا ان تذهب الى الكونسر ... والشيطان ، وتدعيني اعود الى فراشي . الا أن التعقل غلبني ، ووعدت ماشا – في نفسي – ان اكيل لها الصاع صاعين واكثر .. ذات يوم او ذات ليلة .

ووصلنا كنيسة المادلين في الساعة التاسعة والنصف الا خمس دقائق ، واتخذنا

مجلسنا في الصف الأول . ونظرت حولي ، فاذا بالحاضرين بين عجوز ودعت كهولتها من زمن طويل ، وبعض الشيوخ والنساء النصف ، وقد جلسوا جميعاً كالخشب المسندة ينتظرون ان يبدأ الكونسر .

والحقيقة تضطرني الى القول بأن الحفلة الموسيقية كانت جميلة في حد ذاتها ولم تمض على بدء العزف سوى دقائق حتى نسيت ما يضطرب في نفسي من غضب على «ماشا» ، واخذت اتذوق الحان الارغن اللطيفة الفخمة في وقت واحد ، واتلذذ بموسيقى « باخ » تنطلق من انابيب الارغن ويتردد صداها في قبة الكنيسة وتعود فتغمر الحاضرين بفيض من النغم الرائع .

وخرجنا من المادلين والساعة قد قاربت الظهر ، فدعوت ماشا الى الغداء فقبلت ، فقلت لها :

– لنذهب عند « مارت »

– مارت ؟ ومن مارت هذه ؟

– سترين .. ولكن انذرك بأن مطعمها ليس فخماً ولا كبيراً ، انه مطعم يرتاده الطلاب .

– جميل .. انها فكرة جميلة .

وسرنا على اقدامنا من المادلين حتى ساحة الكونكورد ، وركبنا الاوتوبوس فاجتاز بنا السين وحطنا أمام تمثال دانتون ، على بولفار سان جرمان . واخذت بذراع ماشا فعبرنا الشارع ، ودخلنا شارع « الكوميديا القديمة » ودخلنا مطعم مارت ، وكان مزدحماً بالآكلين ، وكلهم من الشباب . فتيات يرتدين البنطلون ، وشبان قد ارخوا ذقونهم وشواربهم ... وكلهم يتكلم ويؤشر ويضحك ، ومن فوق هذا كله صوت « مارت » وهي تنقل الطلبات الى الطباخ الذي نصب قدره وناره الى جانب الباب . ولم نجد طاولة نجلس اليها فجلسنا الى البار ، وطلبت « بفتيك وبطاطة مقلية » وكذلك فعلت ماشا . وطلبت قدحاً من النبيذ الأحمر ، فقالت لي ماشا :

– هل استطيع ان اطلب حليباً ؟ فأجبتها :

– طبيعي .. ولكن لا اضمن لك احترام صاحب المحل .

فضحكت وقالت :

– سأشرب نبيذاً كذلك .

واكلنا وشربنا ... وتحدثنا .. عن الموسيقى بالطبع .. الا ان النبيذ ما عتم ان فعل فعله في ماشا وبدا كأنها قد اخذت تفقد بعض جمودها ، واخذ ضحكها يموج برنات انثوية جديدة علي . وقلت لها ، في سياق الحديث :

– اظن انك تحبين الموسيقى اكثر من أي شيء آخر .

– نعم .. احبها حباً يملأ نفسي .. فلا احتاج الى اي شيء آخر .

– وموسيقى « الجاز » ؟

– الجاز !! قالتها وقد تغضن انفها الجميل كأني وضعت أمام خياشيمها فسيخاً ابن خمسة اعوام .

– لماذا هذا التقزز ؟ اليس الجاز موسيقى ؟

– قد يكون موسيقى ، ولكن ...

– هل سمعت منه شيئاً ؟

– ابداً ! ولن اسمع .

– هذا منطق المتعنت . كيف يمكنك ان تحكمي على الجاز دون ان تسمعيه ؟

– استاذي في فيينا قال لي انه من نتاج الزنوج السكارى بالويسكي والحشيش . انه موسيقى بدائية .. لاعلاقة لها بالموسيقى التي اؤمن بها انا .

– ولكنك جئت باريس كي تتفقهي بالموسيقى . واهم من ذلك أنك جئت باريس لتخبري بنفسك جمال الموسيقى على انواعها . ولذا أظن ان من واجبك – كباحثة وذواقة – ان تسمعي الجاز ولو مرة حتى اذا قلت بعد ذلك انه غير جميل ، صدرت عن خبرة وتجربة .

فنظرت الي محدقة ، وراحت في تفكير عميق . وقالت لي بعد ذلك :

– معك حق .. سنذهب .. متى ؟

– الاحد المقبل .. الساعة التاسعة مساء

– تعال خذني من المدينة الجامعية .

– الا تظنين انه من الافضل ؟ ..

– ان آتي الى الحي اللاتيني ؟ لا .. مرة لك ومرة لي .. تعال الى البيت الامريكي ولا تنس ان تصفر كما اتفقنا .. انها اشارة بيني وبينك .

– ليس احلى على قلبي ان اصفر مطلع السنفونية الناقصة .. ولكن الا تظنين ان الساعة التاسعة مساء وقت متأخر .. وان صفيري قد يجلب الانتباه ، ويثير الفضول ؟. سأطلبك من مكتب الاستقبال .

– معك حق .. انك لايفوتك شيء .. اذاً .. الساعة التاسعة مساء يوم الأحد المقبل .. الساعة التاسعة مساء .

* * *

ومضى الاسبوع كلمح البصر ، بين تردد من حين الى آخر الى الجامعة ، ومواعيد مع هذه وتلك . ولولا « هذه وتلك » لقضيت اسبوعاً عبوساً في انتظار يوم الأحد ، الا ان الله – الحمد له – كان قد تكرم علي باكثر من واحدة ممن يذوب الوقت في صحبتهن كما يتبخر الندى في شمس الصيف . الا اني ، في هذا الوقت كله ، كنت لا أني افكر في ماشا ، لا تفكير المحب العاشق ، بل تفكير الصياد يبحث عن شرك يوقع فيه طريدة عنيدة . وقضيت الساعات الطوال ، وانا اضع الخطط وارسم الطرق وانصب الحبائل في لذة اللواتي تعاقبن على غرفتي في ذلك الاسبوع ، كنت ارى « ماشا » ، وفي كل كلمة اقولها واشارة تصدر عني كنت اتصور وقع ما أقول وما أفعل عليها ، كالصياد يتمرن على اهداف صنعية قبل ان يخرج للصيد الصحيح . وفي كل هذا كنت ارى رغبتي تنمو وتتكامل وتزدهر ، وتملأ علي جنبات نفسي ، وارى شوقي الى ماشا يملك علي ذاتي ، فيصرفني رويداً رويداً عن كل شيء سوى موعدنا الأحد .

* * *

وفي الساعة التاسعة تماماً من مساء الأحد ، كنت في البيت الأمريكي اطلب ماشا ، فنزلت بعد ثوان ، في ثوب زمردي يكشف عن نحرها وذراعيها ويزيد شقرتها ذهباً وخضرة عينيها عمقاً . وكانت تحمل معطفاً على ذراعها فساعدتها على ارتدائه ، وصعدت الى انفي رائحتها ، رائحة عطرها ورائحة الصابون والبودرة ...

وخرجنا وركبنا « المترو » الى اللوكسمبورغ ، وحين خرجنا الى البول ميش ، قالت ماشا :

– انذهب الآن لنسمع الجاز ؟ فنظرت الى ساعتي وقلت :

مكتبة هاشم
شارع سوريا بيروت
تلفون : ٢٦٠٧٩
كتب ادبية – مدرسية – روائية
ادوات قرطاسية
مبيع ومشترى كتب مستعملة

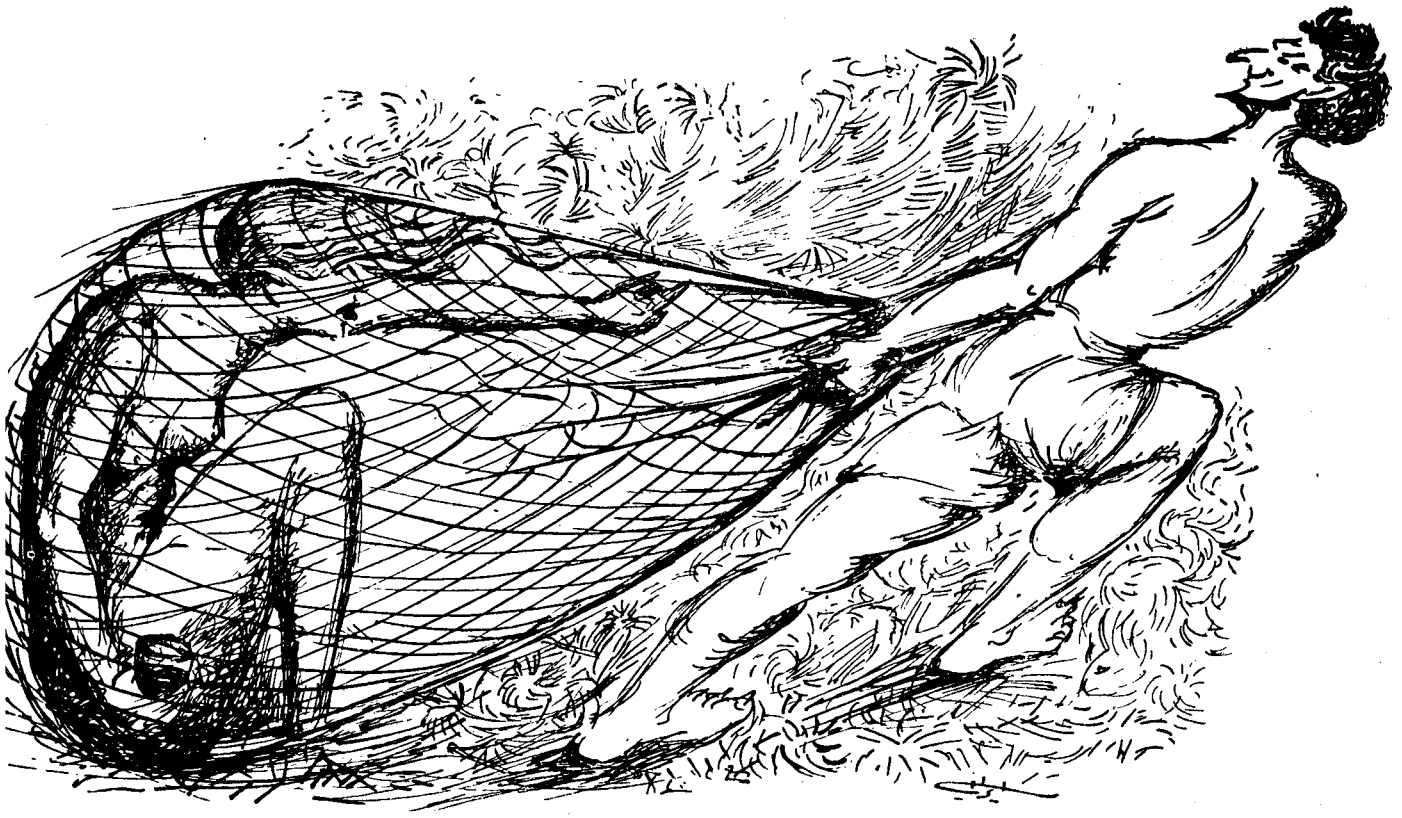

– الساعة لاتزيد على التاسعة الا بقليل .. وهذا وقت مبكر للجاز ... ما رأيك اذا جلسنا قليلا في مكان ما حتى الساعة العاشرة على الأقل ؟

وسرنا قليلا ودخلنا احد المقاهي الكثيرة في البول ميش ، وجلسنا الى جانب النافذة بحيث نرى الشارع ، والرائحين فيه والآتين . وسألت ماشا :

– ماذا تشربين ؟ حليب كالعادة ؟

فابتسمت واجابت :

– لا .. هذه مناسبة خاصة . قل لي ، انت .. ماذا تشرب ؟

– اشتهي قدحاً من الباستيس ؟

– وما هو الباستيس ؟ لم اسمع باسم هذا الشراب من قبل .

– هو اقرب شيء الى العرق .. الذي نشربه في بلادنا .. سترين ، ان طعمه لذيذ ، اذا كنت تحبين اليانسون

– لست ادري .. سأجرب .

وطلبت لنا قدحين من الباسيتس مع بعض الجليد ، واخذنا نشرب . وما ان جرعت ماشا جرعة واحدة حتى صاحت :

– اوه .. هذا شراب قوي .. اوه !

فقلت لها :

– لا .. لاتخافي .. هذا طعمه .. أما مفعوله فلا يزيد على مفعول النبيذ .

ويعلم الله اني كنت كاذباً ، فالباستيس كالعرق المثلث ، مفعوله هائل الا على الذين اعتادوه . الا ان الحرب خدعة وهل بين الرجال والنساء الا الحرب منذ ان وجدت الخليقة ؟

وتحدثنا عن الجاز ، او بالأصح تحدثت انا عن الجاز ، واستمعت هي ، او اظهرت الاستماع ، اذ ان الباستيس كان بدأ يفعل فعله ، وعلقت انظارها بنقطة بعيدة ... ولم يزدها السهوم الا جمالا وبهاء .

وفرغ قدحانا فدعوت الجرسون لأطلب منه ان يجدد لنا ، فقالت ماشا :

– لا .. كفى ما شربنا . تعال نتمشى حتى يحين موعد ابتداء الجاز .

وخرجنا من المقهى ، ونزلنا البول ميش ثم ملنا الى اليسار وسرنا في بولفار سان جرمان ، نمشي بخطى بطيئة ، وماشا متكئة على ذراعي ، وقد ناءت بثقل جسمها علي .. ووصلنا كهف « سان جرمان » بعد العاشرة بقليل وقد فتحت ابوابه فنزلنا اليه .

* * *

وكان كهف « سان جرمان » كغيره من الكهوف التي عرفتها باريس بعد الحرب مباشرة والتي لم تختف من الوجود الا في الأيام الاخيرة ، مغارة ضيقة جدرانها من الحجر العاري لا يغطيه دهان او شيء آخر . كأنها ، في حالتها البدائية ، تتجاوب مع الموسيقى التي تتردد في جوانبها . وهنا وهناك ، على مصاطب ، اقيمت بعض الموائد الصغيرة يزدحم حولها خليط لا مثيل له من النساء والرجال – ممن يسمون انفسهم وجوديين واشباه وجوديين – وممن هم بين بين ، يطلق عليهم في باريس اسم « الجنس الثالث » ، رجال مخنثون ونساء مسترجلات ، لا يدري المرء ايهن هو وايهم هي . والنور الضئيل المتماوت ، ينزل من زوايا غير مرتقبة على وجوه فتية يتفجر فيها الشباب ، ووجوه اخرى غير فتية ، خددتها تجاريب الزمان والحياة في باريس .

والى زاوية من الكهف ، قامت منصة استلقت عليها مختلف الآلات الموسيقية كأنها جثث قتلى بعد معركة ازلية .

وبين منصة الموسيقى ومصاطب النظارة ، مربع ضيق أفسح للراقصين ، وقد سلط عليه نور ساطع ، كأن المربع حلبة للملاكمة او ساحة مصارعة .

* * *

واتخذنا مجلسنا ، ماشا وأنا ، الى مائدة اقيمت على حافة مربع الرقص ، قبالة منصة الموسيقى مباشرة . ولم يمض على وجودنا الا ربع ساعة حتى كان الكهف قد امتلأ ، ولم يبق فيه مكان للجلوس ، فأخذ الآتون يقفون على الدرج

النازل من الشارع ويجلسون على الأرض ، ويستندون الى الجدران ، وعبق المكان برائحة البشر ، رائحة لا يخطئها الأنف ، ان تكن في المترو او في السينما ، مزيج من العرق والانفاس والعطر والصابون ، مشبع بالحيوانية الصرفة ، تثير الأعصاب وترهف الاحساس .

وجلس الى مائدتنا شاب وفتاة ، دون ان يعتذرا او يستأذنا . ولم يتكرما علينا الا بنظرة عابرة ، لم يكرراها ، اذ ادركا — دون شك — اننا جئنا للفرجة لا للمشاركة في سر من الاسرار او طقس من الطقوس ، كأكثر الذين أتوا يستمعون الى الجاز . وكان صاحبنا — هو وهي — يرتديان بنطالا اسود وقميصاً اسود كذلك ، وكانت تلك هي البزة الرسمية « للوجوديين » في ذلك الحين ، واخذا يتبادلان الحديث والمداعبات مع اكثر الموجودين . بصوت عال ، كأنهما في بيتهما .

ونظرت الى ماشا ، فرأيت على وجهها ما يشبه علامات الامتعاض والاشمئزاز ، فقلت لها :

— الا يعجبك هذا المحل ؟

— بلى .. انه يعجبني جداً .. والواقع ان فيه نماذج تستحق الاهتمام .

قالها وهي تشير بطرف عينها الى الجالسين الى مائدتنا .

فقلت (وانا اريد اثارتها عمداً ، لاخرجها عن هذا الترفع البرجوازي) :

— هذا ، بالطابع ، مختلف عما تعرفين في البيت الأمريكي وغيره .

واحست ماشا بالسخرية في صوتي فلم تجب ، وظهر في عينيها بريق الغضب . وتداركت الأمر قائلا :

— ماذا تشربين ؟

— ويسكي

— ويسكي ؟ فقالت ، ساخرة بدورها :

— الا اذا اصررت على ان أشرب حليباً . فقلت :

— معاذ الله ... ويسكي اذا شئت .

— بلا ماء

* * *

وفي الساعة الحادية عشرة ، كانت ماشا قد فرغت من ثاني قدح ويسكي (بدون ماء) واعتصمت بصمت لم احاول قطعه ، حين ظهر العازفون على المنصة واخذوا « يدوزنون » آلاتهم ، فتصيح وتئن ، وتغيب صرخاتها في ضجة الحاضرين وضحكهم .

ثم بدأت الجوقة تعزف الحاناً من الجاز ، لطيفة ، داجنة — اذا صح القول — كأنها تجرب نفسها وتجرب الحاضرين . ولم يبد على هؤلاء انهم يقدرون هذا النوع من الموسيقى ، فظلوا منصرفين الى حديثهم وضحكهم .

وخرجت ماشا عن صمتها لتقول :

— أهذا هو الجاز الذي وعدتني به ؟ كأني في مقهى من الدرجة الرابعة في بيبنا ... ما أظن هذا سيغير رأيي في الجاز .

فقلت لها :

— انتظري قليلا ... حتى الحادية عشرة والنصف .

— وماذا سيحدث عند ذلك ؟

— سترين .. سترين ..

— وما قولك في قدح آخر نتعلل به حتى يحين الموعد ؟

فقلت — محاولا التلطف ما أملتني خشية ان امعنها بشيء — :

— اتظنين ان الويسكي يوافقك ... بهذه الكمية ؟

فاجابت بسخرية ثقيلة :

— أتخاف ان اسكر ؟ اليس هذا ما يؤمله الرجال حين يخرجون مع فتاة ؟

ولكنها شعرت بأنها تجاوزت حد السخرية الى التجريح فقالت :

— أنا آسفة لما قلت .. ما كنت اعنيه مطلقاً ولست ادري ما بي .. ان هذا الجو يملأني حنقاً لا سبب له ويطغى علي حتى أكاد انسى من انا .. انه جو مسحور .. لقد بشت فيه الأرصاد .. انت يا شرقي ..

وضحكنا معاً ، واشرت للجرسون كي يأتي لنا بما نشرب ، ففعل ولم يكد ، حتى هبط على الكهف صمت تام ، واتجهت الانظار الى المنصة حيث ظهر « سيدني بشيت » مع الكلارينيت التي جعلته بين اعظم عازفي الجاز في العالم . ووقف الى جانبه « كلود لوتير » تلميذه وتابعه .

وفجأة ، علت من الكلارينيت صرخة تقطع نياط القلب ، استمرت ثواني طويلة ، انبهرت لها انفاسنا جميعاً ، كأننا مع العازف في عزفه ، وقد اخذ يسكب روحه في هذا النغم الذي يعتصر القلب اعتصاراً ، وما ان بلغ اللحن اعلى نغمة حتى انطلقت الجوقة بكاملها ترسم حول اللحن الأساسي نسيجاً من الموسيقى البدائية ، هي مزيج من ضربات القلب ، وتركاض الدم في العروق ، وهزة الادغال في ربيع الخليقة .

وكان الحاضرون قد تحجروا ، كل في وضعه الخاص ، فمن مشرئب الى الجوقة كأنه نبتة تشرب نور الحياة الى مسند رأسه الى يده غائب في احلامه ، أو مغمض عينيه يهز رأسه على الايقاع كالمأخوذ ، وكلهم بلا استثناء ، قد أخذهم الحال ، كأنهم في حلقة ذكر او في حفلة زار .

ونظرت الى « ماشا » فاذا بها قد استندت الى مقعدها ، واخذت تنظر الى الحاضرين نظرات تتضارب فيها الدهشة العفوية بالاحتقار المفتعل .

وقلت لها بصوت خافت .

— ما قولك ؟

وفتحت فمها لتجيب ، الا انها لم تستطع ، اذ شقت الجو العابق بالدخان والانفاس وروائح البشر نغمات تذوب حناناً ، كنسيم الربيع بعد العاصفة . واخذ « كلود لوتير » بايدينا فاخرجنا من الادغال التي ساقنا اليها « سدني بشيت » وسار بنا في المروج تسيل فيها السواقي المترعة ، وعلى حوافيها زهور اجمل مما في سجاجيد فارس كلها . وكان لهذا التبديل في الايقاع بين النغمين أثر أخاذ علينا جميعاً ، فخرج بنا من تحجرنا المأخوذ الى انسانية لينة رضية .

ونظرت الى ماشا فرأيتها قد مالت بجسمها الى الأمام ، واسندت خدها الى يدها وظهرت في عينيها نظرات حالمة ، وافترت شفتاها عن ابتسامة ضئيلة ، يلمع من خلالها بياض اسنانها .

وظلت على هذا اكثر من ساعة ، بين بشيت ولوتر ، نخرج من الظل الى النور ، ثم نعود الى العتمة البدائية تغمرنا بحماها الغريزية ، على وقع الطبل ، يرجع صداه في اعماقنا يهز احشاءنا هزاً .

وماشا في هذا كله — اتراه الويسكي ام الجو ام الموسيقى ام الثلاثة معاً ؟ — تتخلى على مر الدقائق عن جمودها الاول وتخشبها المصطنع ، وتطغى على خديها حمرة شفقية ، وتبرق عيناها بنور جديد . وظهرت في منبت شعرها قطرات دقيقة من العرق ، كأنها تاج من اللؤلؤ الناعم .

وتوقف بشيت ولوتر عن العزف وعادت جوقة الرقص فاحتلت المنصة وملت على ماشا اسألها :

— ما قولك الآن ؟

فلم تجب باكثر من : «ام! ام!» ، كأنها تتلمظ وتتلذذ بعد أكلة او شربة طيبة .

ومالت نحوي حين اجابتني ، فلطمني عطرها ، كأنه عنصر حي دافيء ،

فقلت لها :

– أما آن الأوان ان تقولي لي ما هو عطرك ؟

فقالت :

– انك عنيد .. ولا تنسى .. اسمه « ليالي الحب » .

فلم املك نفسي عن الابتسام ، فقالت :

– وما الذي يضحكك ؟

– ان عطرك يتناقض كل التناقض مع شخصيتك او مع ما تظهرينه للناس على انه شخصيتك . ولقد ادهشني هذا التناقض منذ اول مرة رأيتك فيها ... هذا العطر الذي يشتعل انوثة و ...

وتوقفت ابحث عن الكلمات ، فاكملت من عندها :

– ... انه يتناقض مع الفتاة التي تتعطر به .. يتناقض مع بعدها عن الانوثة.

– لا .. لم اعن هذا مطلقاً .. وانما وقفك حياتك على الموسيقى كالحندي يقف حياته على الجندية .. حملني على الاعتقاد ..

وهنا خانتني الكلمات مرة اخرى . فقاطعتني بلهجة فيها الشر :

– وهل تمنع الموسيقى المرأة من ان تكون امرأة ؟ ما اغربكم انتم الرجال ! إما ان تتبرج المرأة وتلقى بانفسها في احضانكم ، لا تطيع الا نداء انوثتها ، فتأخذوها متلهفين وتعزفوا عنها بسرعة غير شاكرين وتنعتوها بالسهولة والاستهتار .. وإما ان تهتم المرأة – فيما تهتم – بما يشغل العقل ويسمو بالنفس فتديروا لها ظهوركم وترموها بالتحذلق. وحتى انت ، الآتي من الشرق ، الذي يعلم – منذ آلاف السنين – ان المرأة انثى قبل كل شيء ...

ولم تكمل جملتها بل قالت في حنق مكبوت :

– قم بنا نرقص .

وكانت حلبة الرقص الضيقة مزدحمة بالراقصين ، فلم يكن أمامنا مجال للحركة ، فاخذنا نحاول الرقص فلا نستطيع الا الخطو في مكاننا . وزحمنا الآخرون فالتصق احدنا بالآخر «لوتراق زجاجة من الخمر فيما بيننا لم تسرب». واحسست بحرارة ماشا تتسلل الي ، وبثقل جسمها بين ذراعي ، وقد استسلمت للموسيقى واسترخى رأسها على كتفي . وسألتها :

– كيف انت ؟ فاجابت بصوت خافت :

– على خير ما يرام .. لم اشعر بمثل شعوري الآن في حياتي .

– وكيف الجاز ؟

– انه كسيخ من النار يخترق الاحشاء فيترك فيها ظمأ لأشياء واشياء .

* * *

وانتهت جوقة الرقص من عزفها فقلت لماشا :

– اتريدين ان نذهب ؟ فقالت : هل انتهى كل شيء ؟

– لقد انتهى الرقص . – وماذا بعد الرقص ؟

– يعود « سدني بشيت » « وكلود لوتير » مرة اخرى .

– نبقى اذن

– ولكننا سننتهي بعد الساعة الواحدة بكثير ، فلا يبقى « مترو » تعودين به الى المدينة الجامعية .

فقالت بدون اكتراث :

– آخذ تاكسي .

فقلت في نفسي « لقد قمت بما يفرضه الواجب على اي « جنتلمان » لا يريد توريط فتاة يخرج معها» وابتسمت لنفسي وانا انعتها بالجنتلمن . فسألتني ماشا :

– والآن .. م تضحك ؟

– اضحك من نفسي ، ومن بعض التزمت احس به احياناً .

– اتزمت في هذا الكهف ؟ .. وفي هذا الجو .. ؟ وفي هذه الساعة من الليل ؟ . تعال نجلس قبل ان تؤخذ مقاعدنا .

وفي الساعة الواحدة عاد بشيت ولوتر ، وظلا يعزفان حتى الساعة الثانية ، وكأنهما ينفخان في الابواق التي انهدمت لها اسوار اريحا ، اذ ان كل قطعة كانا يعزفانها كانت تفجر في « ماشا » .. ينابيع جديدة من الحياة وتفتح فيها الواناً اوسع للانطلاق . وعلى بكاء الكلارينيت وشكواها وتباريحها ، وقرع الطبول الزنجية وهزيم « التشيلو »، تلاشت آخر ذرة من التزمت في ماشا . فوضعت رأسها على كتفي ويدها اليمنى في يدي تعصرها على الايقاع حتى الألم ، ويدها اليسرى ترفع كأسها الى شفتيها .

وقالت لي بين كأسين ، بلهجة مغرقة في الرصانة :

– كثيراً ما حدثني استاذي عن فعل الموسيقى في اطلاق الروح من عقالها الارضي وتحريرها من قيود المادة . ولطالما احسست بروحي ترتفع الى آفاق عليا بسبب موتزارت وباخ وبتهوفن وغيرهم من عظماء الموسيقى . الا ان موسيقاهم كانت تسمو بي الى افلاك باردة ، قمرية النور ، لا حياة فيها ولا حرارة . أما هذه الموسيقى ، فانها شمس محرقة ومعدن مصهور ، يسري في الدم ، ولهب يحرق الاعصاب واذا كانت هذه هي موسيقى الزنوج . فانا اذن زنجية ..

واخذت تضحك ...

* * *

وانتهى العزف في الساعة الثانية وخرجنا من الكهف الى الشارع كأننا ندخل عالماً جديداً مالنابه عهد من قبل . ولفت ماشا نفسها بمعطفها وقالت :

– برد ... فقلت لها :

– هل تريدين « تاكسي »

– لا .. لا الآن ... لنسر قليلا .

وضمت ذراعي اليها واستندت عليها . وسرنا لا نتحدث في بولفار سان جرمان . ثم دخلنا بولفار سان ميشيل ووصلنا فندقي ، وصعدنا الدرج الى غرفتي فيما يشبه الحلم ...

ولم ار ماشا بعد تلك الليلة ، على الرغم من اني عدت فطلبتها عشرات المرات من البيت الامريكي . وما زلت اتساءل : هل قطعت علاقتها بي لأني لم اصفر لها السنفونية الناقصة كما اصرت علي دوماً ؟ ام ترى الحق على الفتى الشرقي الذي حسر القناع عن وجه عازفة الكمان الآتية من فيينا ، واثبت لها أنها أنثى – كأية امرأة اخرى – فلم تغفر له ذلك ؟

اترى الحق على شوبرت ام على سدني بشيت ؟

لندن

صباح محي الدين

صدر حديثاً

موتى بلا قبور

البغي الفاضلة

مسرحيتان

بقلم جان بول سارتر

ترجمة الدكتور سهيل ادريس والمحامي جلال مطرجي

في سلسلة روائع المسرح العالمي

منشورات دار الآداب

ص.ب ٤١٢٣